

الباب الخامس

مصر والعروبة والتقدم

- من المصرى
- إذن من هم العرب بيولوجياً؟
- رابطة اللغة
- رابطة الدين
- نحن والغرب

لقد التزمت فيما سبق بالنظرة العلمية لرصد الظواهر والتعرف على أسبابها بموضوعية وحيادية من الناحية المعرفية (الأبستمولوجية) كما يراها المتخصصون الأكاديميون، بدون تبرير لاتجاه أو استحسان لتفسير من جهة أو إظهار شرور التوجهات وغيوبها من جهة أخرى؛ ذلك لأن هدف العلم فى النهاية هو عرض المعارف المحايدة .

لكننا إذا نظرنا إلى ما يجرى فى عالمنا المعاصر، سنجد أن هناك شعوباً فى أوروبا الغربية وأمريكا تبسط سيادتها وهيمتها على معظم شعوب العالم، وأمة عربية تكاد تقع تحت السيطرة الكاملة للغرب، وخاصة فى المجالات العلمية والتكنولوجية والعسكرية، وتكاد تفقد خصوصيتها الثقافية والفكرية، اللهم إلا بعض ردود الأفعال التى تدفعها إلى إشكالات تاريخية هامشية، وتبعدنا عن حقائق دنيانا المعاصرة، بينما هناك شعوب شرقية فى آسيا أخذة فى النهوض والإمساك بزمام أمرها بتصميم وفاعلية، ويبقى كثير من المهمشين فى الجنوب يقاسون العزلة والإهمال والركود .

أين نحن من كل هذا على ضوء ما سبق عرضه؟ .

من المصرى؟

يعيش الإنسان المعاصر على كوكب الأرض منتمياً إلى وطن، والوطن اليوم ليس مساحة من سطح الأرض فقط، ولكن له حدوده الإدارية وطبيعته الجغرافية، ويشارك فيه بشر وأحياء أخرى من نبات وحيوان، وبه ثروات طبيعية، كما أنه مر بأحداث تاريخية وله قيمته النسبية التى يحددها على الأرجح الإنسان أكرم المخلوقات، وماذا يفعل مع هذا الوطن ومكوناته .

وفيما سبق ذكره، فالإنسان كائن حي متميز له أصول ومواصفات بيولوجية خاصة تجمعها في نوع معين من الكائنات يسميه علماء الأحياء «الإنسان العاقل». وهذا العقل المميز للإنسان هو الذي أتاح له إنتاج ثقافة في صورة علوم وآداب، وفنون، وصناعة وزراعة وقيم وعادات. . . . وغيرها مما سبق تفصيله.

أما عن الأصول والمواصفات البيولوجية الخاصة بالإنسان، فتحددها أساساً الشفرة الوراثية الخاصة لفرد معين، وهي وظيفة ما يسمى بـ «الجينوم» الذاتي لهذا الفرد، والذي يتكون بتصرف محدود في أثناء عملية الإخصاب من اندماج المادة الوراثية الموجودة في نطفة الأب مع المادة الوراثية الموجودة في نطفة الأم.

هذا الجينوم الذاتي للفرد يحدد سماته المتفردة والمميزة ويعكس صفات الوالدين وأسلافهما، وأيضاً يعكس مواصفات المجموعة البشرية أو العرق الذي ينتمي إليه هذا السلف فمن يُولد في أسرة زنجية يتصف بالسمات التي تميز «الزنج» عامة، ومن يُولد لأسرة إسكندنافية يتصف بالسمات العامة التي تميز «القوقازيين النورديك» ومركزياً يحدد هذا الجينوم الذاتي كون الفرد بشراً وليس حصاناً أو طائراً.

وتوضح الدراسات الحديثة، بناء على علوم البيولوجيا الجزيئية وتحليل المادة الجينية، أن الاختلافات بين البشر طفيفة جداً، ومعظمها توجد بين الأفراد داخل المجموعة أو العرق الواحد (راجع الباب الأول).

إذا عاشت مجموعة من البشر في ظروف طبيعية ومناخية وبيئية ثابتة، وبمعزل عن الآخرين لأجيال عديدة، تتراد هذا السمات الخاصة التي تميزها بوضوح عن مجموعة أخرى عاشت في بيئة أخرى أيضاً لأجيال عديدة، مثلاً (الزنج الذين يعيشون في المناطق الحارة في إفريقيا والنورديك الذين يعيشون في المناطق الباردة في شمال أوروبا) يمكن تمييزهم عن بعض بسهولة ووضوح.

ولكن ما يجمع البشر، بكونهم بشراً هو كثير جداً، وعميق جداً، ومؤثر جداً في كونهم ينتمون لنوع واحد، مشتركين في تاريخ الحياة وأهداف الوجود.

وبناء على ذلك، فالمصري هو إنسان ينتسب إلى وطن هو مصر، وتُبنى هذه المواطنة على أسس وشروط قانونية وإدارية إذا استوفاهما الفرد قبله المجتمع مصرياً، وليس من بين هذه الشروط مواصفات بيولوجية عرقية كطول القامة ولون الجلد أو العينين. . . .

وغير ذلك من المواصفات البيولوجية (راجع قانون الجنسية والتجنس).

واتفاق المجتمع على هذه الشروط كان نتيجة التطور البيولوجي لسكان هذه المنطقة ومميزاتها وتاريخها.

إذا نظرنا إلى هذه المجموعة البشرية التي تعيش على تلك الرقعة من الأرض الآن، والتي تسمى مصر، نجد أنهم على طول التاريخ المعروف لم يكونوا أبداً بمعزل عن غيرهم من سكان المعمورة، بل إنه حتى منذ فترة ما قبل التاريخ، فإن حفريات العظام في منطقة البدارى جنوب مصر بها العديد من المواصفات للأعراق الإفريقية في الجنوب، أما الحفريات الأخرى التي وُجدت في منطقة حلوان والشرقية تبين العديد من المواصفات للأعراق القوقازية من الشمال والشرق.

الكثير منا يعلم أن مصر، على مدى التاريخ المعروف ومنذ توحيد الملك نارمر للقطرين الشمالي والجنوبي، كانت مصباً للأعراق من جميع الاتجاهات، فالوعاء الوراثي لهذه المنطقة غني بالعديد من المورثات (الچينات) التي انتشرت وزحفت إليه من جميع الأرجاء. في التاريخ القديم تعرضت مصر لقدم وغزو قبائل من وسط آسيا من الشرق وأقاموا بها وحكموها أكثر من قرن من الزمان (الهكسوس التي يسجل التاريخ قيام الفرعون أحمس بنزع الحكم منهم)، وبقيت چيناتهم في هذا الوعاء، ثم تعرضت مصر لغزو من الشرق أيضاً بواسطة الفرس والأشوريين، ثم من الجنوب (المملكة النوبية) ثم من الغرب (الليبيين)، وفي أواخر فترة مصر الفرعونية قدم لها الأغرقيق من الشمال بقيادة الإسكندر الأكبر، والذي ترك فيها أسرة من العسكريين حكمت مصر لمدة ثلاثة قرون تقريباً، كما جاءت قبائل من شعوب مجاورة إلى مصر للتجارة والاستيطان في قديم الزمان.

ماذا يعني هذا بيولوجياً؟ يعني أن هناك چينات ومورثات أنتخت في بيئات أخرى غير المنطقة الجغرافية المسماة مصر، وانتقلت تلك المورثات إلى الوعاء الوراثي لمصر وتم اختلاطها بما هو موجود أصلاً من چينات ومواصفات (عن طريق التزاوج)، وبدرجات متفاوتة حسب طبيعة العلاقات الاجتماعية وقتها. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تبع الأغرقيق الرومان الذين سيطروا على مناطق أوروبا، بل وعلى أجزاء من آسيا وإفريقيا.

وتبعتهم الدولة البيزنطية وانتشرت معها مورثات إثنية من الشمال ، إلى أن تم الفتح العربى الإسلامى ومعه أتى الكثير من الجينات المنتجة فى الجزيرة العربية وما حولها . كان من طبيعة الحكم العربى أن يكون هناك خليفة أو أمير للمؤمنين يسكن عاصمة الخلافة ويُصَبِّب والياً لحكم «مصر الولاية» ولم يكن مشروطاً أن يكون هذا الوالى من الجزيرة العربية أو من مصر ، بل كان غالباً من أحد أجزاء الخلافة المنتشرة على رقعة واسعة من العالم المعمور وقتها ، من آسيا وأوروبا وإفريقيا ، وكان يُعتقد أن أكثرهم ولاء وشجاعة هم من مجتمعات شمال وشرق تركيا ، وبعضهم من شبه جزيرة البلقان ومناطق غرب ووسط آسيا وأحياناً من إفريقيا ، واستمر الأمر كذلك مع نزوح العديد من الممالك والجوارى من تلك الأجزاء ، واستمر ذلك حتى بعد فتح السلطان التركى سليم الأول لمصر فى أوائل القرن السادس عشر وحتى بداية القرن التاسع عشر ، التى كانت مصر ، حينها ، إدارياً تابعة للإمبراطورية العثمانية تبعية صورية ، ثم أتت الحملة الفرنسية ، واستولت على مصر لسنوات قليلة ، ثم استولى محمد على وأسرته على حكم مصر ؛ ثم احتلت بريطانيا مصر إلى أن انتهت الإمبراطورية العثمانية مع نهاية الحرب العالمية الأولى فى أوائل القرن العشرين (راجع تاريخ مصر الحديثة) .

معنى هذا بيولوجياً أن الوعاء الوراثى للوطن مصر يحتوى على العديد من المورثات لكثير من المجموعات البشرية ، التى تم انتخابها فى بيئات آسيوية وأوروبية وإفريقية متنوعة اختلطت على مدى آلاف السنين ، وكونت هذا الشعب المعاصر الكامن فى أفراد معظم سمات النوع البشرى مع اختلاف عناصره وأعراقه وفروعه ، ويحب الآخر ويحترمه ولا يكاد يعرف التعصب للعرق .

إذن من هم العرب بيولوجياً؟

يكاد المؤرخون يتفقون مع علماء علم الإنسان وعلم اللغات على أن العرب هم مجموعة السكان الأصليين لشبه الجزيرة العربية ، ويقسمهم المؤرخون إلى عرب بائدة وهم الذين بادوا وانقطعت أخبارهم ولا يُعرف عنهم غير ما ورد فى الكتب السماوية والشعر العربى القديم مثل عاد وثمود ، وعرب باقية .

أما العرب الباقية فيما نعرف فينقسمون إلى قسمين :

(أ) عرب عاربة: أى الصرحاء الخالص الذين ينتسبون إلى قبيلتى «يَعْرَبُ» و«جَرْهَمُ» من شعب «قحطان» وموطنهم الأصيلى بلاد اليمن فى الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية، حيث تكثر الأمطار والزررع. ومن قبيلة يعرب تشعب فرعان كبيران هما «كَهْلَان» و«حمير» ومن أشهر بطون كهلان قبائل «همدان»، «كَنْدَةَ»، «أَنْمَار» و«لَحْم»، من أشهر بطون حمير قبيلة «قُضَاعَةَ»، ومن قضاة، تفرعت قبائل «جهينة» و«كلب» و«بنو نهد»، و«جرهم».

(ب) عرب مستعربة: ويطلق على جمهور العرب من البدو والحضر من سكان الحجاز وحتى بادية الشام، ويقال أن الأصل فى هذه التسمية بالعرب المستعربة أو المتعربة يعود إلى قبيلة «جرهم» من شعب «قحطان» نزحوا بعد انهيار سد مأرب فى اليمن إلى منطقة مكة فى حوالى القرن السابع قبل الميلاد حيث كان هناك بعض الزراعات حول الآبار.

وكانت هناك قبائل عربية أخرى نزحت منذ ما قبل التاريخ إلى وادى الرافدين وبادية الشام ومصر حيث تيسرت لهم سبل العيش فى أحواض الأنهار، وعند السواحل البحرية واندمجت تلك القبائل، ثقافياً وتزوجت بيولوجياً مع السكان الأسبقين لتلك المناطق.

ويرى المؤرخون أن بلاد العرب قبل الإسلام لم تعرف الحكومة المركزية، كما كان فى مصر مثلاً، وإنما قامت فيها وحدات سياسية مستقلة على أسس قبلية، تفاوتت تنظيمها تبعاً لاتساع نفوذها.

فى الجنوب الغربى فى بلاد اليمن قامت عدة ممالك ذات حضارة بعضها عميق التاريخ واتصلت بإفريقيا فى الغرب ومنطقة القرن الإفريقى حيث إن الأصول اللغوية فى تلك المناطق سامية مشابهة للغة العربية، وكانت هناك حركة للسكان بين بلاد «بونت» - الصومال الحالية - ومصر الفرعونية وأيضاً منذ فترة ما قبل التاريخ (وجدت مؤخرأ بعض الحفائر فى اليمن يرجع تاريخها للألف الثانية قبل الميلاد، ويقال إن طرق الدفن فى تلك الحفائر مماثل لما كان بمصر قبل عصر الأسرات - دفن القرفصاء)، من أشهر تلك الممالك مملكة «معين»، مملكة «قتبان»، مملكة «سبأ»، ومملكة «حمير».

فى شمال شبه الجزيرة العربية ، استوطنت بعض القبائل العربية وكونت دويلات شبه مستقلة فى الأراضى القريية من الدولتين الكبيرتين ؛ دولة الفرس ودولة الروم ، ومن هذه الدويلات «مملكة الأنباط» وكان أهلها يتكلمون لغة عربية شمالية ويكتبون بالخط الآرامى النبطى ، وهو الخط الذى استخدمه أهل قريش فى تدوين لغة القرآن الكريم ، ومملكة «تدمر» وقد تم ضمهم إلى مملكة الروم فى نهاية القرن الأول الميلادى تقريباً ، ثم مملكة «غسان» وتشمل الأراضى الواقعة شرق نهر العاصى والأردن ، ومملكة «الحيرة» التى أسسها المناذرة فى القرن الثالث الميلادى فى أراضى الحيرة بالقرب من بابل ، وكان أهلها على علاقة متينة بالفرس ، واشتهروا بتعليم القراءة والكتابة .

أما فى وسط الجزيرة العربية ، فلم يكن هناك فى تلك الفترة سوى بعض الكيانات القوية فى مكة ويثرب التى لم تتعرض لغزو أو فتح خارجى باستثناء الحملة الفاشلة لأبرهة الحبشى ، لكن سكان هذه المناطق سافروا وتقلوا شمالاً وجنوباً سعياً وراء الرزق والتجارة .

هذا يعنى أن المواصفات الفيزيقية لأهل الجزيرة العربية انتقلت منذ فترة ما قبل التاريخ إلى الغرب فى مصر والقرن الإفريقى ، واحتلقت المورثات من الوافدين والسكان الأسبقين وكذلك مع سكان الشمال فى منطقة ما بين النهرين وحتى سواحل البحر المتوسط ، ومع الفتح الإسلامى زادت حركة سكان الجزيرة العربية والمسلمين الآخرين من شعوب أخرى واتسعت آفاقها لتمتد من جنوب أوروبا شمالاً وغرباً إلى حدود الصين شرقاً ، ولم يمثل الإسلام كدين جديد عائقاً للاختلاط البيولوجى والتزاوج ، بل شجع على ذلك على أساس أن الناس سواسية بيولوجياً ومقياس التفاضل بينهم هو درجة التقوى .

إذن ، بيولوجياً الوعاء الجينى للمصريين يضم العديد من المواصفات الأوروبية والأسىوية والإفريقية ، كما يضم الجينات التى تم انتخابها فى الجزيرة العربية ، والمناطق المحيطة بها ومنذ فترة ما قبل التاريخ المعروف ، ولا يمكن اعتبار المصريين أصحاب نمط وراثى مميز ، بل يمتازون بالثراء الجينى ، وبهم معظم السمات الإنسانية الفيزيقية . كما أن سكان الجزيرة العربية الحاليين يضمون كثيراً من السمات الجينية للعديد من الأعراق ، ولو بدرجة أقل من المصريين ، ويمكن أن يكون هناك بعض القبائل المنعزلة لفترات زمنية طويلة تم التزاوج بين أفرادها داخلياً ولهم سمات وراثية مميزة .

أما من ناحية الثقافة، فيرتبط المصريون المعاصرون بالعرب والعروبة، وبأكثر العناصر الثقافية الفاعلة مثل اللغة والدين.

رابطة اللغة

اللغة المصرية القديمة هي لغة سامية مثل اللغة العربية والعبرية وإن كان بها تأثيرات حامية، أو كما يقول علماء اللغة: فهي فرع من اللغات الإفريقية الآسيوية، وإن وجدت فيها تغيرات وتحورات على مدى التاريخ الفرعوني من تأثير الهجرات العديدة لشعوب قدمت من الجنوب ومن آسيا ومن أوروبا أتوا بلغة تواصلهم، حتى إن اللغة القبطية، والتي بدأ استخدامها في مصر مع نهاية القرن الثاني قبل الميلاد- فهي لغة مصرية قديمة- بها الكثير من الكلمات المنطوقة والحروف المكتوبة من اللغة اليونانية القديمة. الروابط بين أصول اللغة المصرية القديمة واللغة العربية واضحة في بناء الجمل واستخدام الفعل في أول الجملة وليس الاسم كما في لغات أخرى بأن نقول «قرأ أحمد الخطاب» ولا نقول «أحمد قرأ الخطاب»، وكذلك الاسم إما مذكر، وإما مؤنث، ولا يوجد الاسم المحايد، وعادة الكلمة المؤنثة يتم بناؤها بإضافة حرف أو أكثر للمذكر. وكذلك وجود المثني في كلتا اللغتين، فلا يقتصر الأمر على المفرد والجمع.

وتختلف المصرية القديمة في علاقتها باللغة العربية عن اللغة الفارسية أو التركية، فالفارسية هي فرع من اللغات الهندوأوروبية من أصول جنوب شرق أوروبية، والتركية من أصول آسيوية تشترك مع مجموعة اللغات الألتية الممتدة من منغوليا شرقاً وجنوب سيبيريا إلى شرق أوروبا.

لذلك تمسكت مصر ولا تزال باللغة العربية حديثاً وكتابة منذ أوائل القرن الثامن الميلادي وكان ذلك سهلاً، وتمكنت اللغة من أهل مصر ليس فقط لأنها لغة القرآن والدين الجديد، ولكن لأسباب لغوية محضة كما هو موضح عاليه، بعكس الفرس والأتراك الذين سهل عليهم العودة، إلى تسجيل ثقافتهم بلغاتهم الأصلية الفارسية والتركية، وإن ظلوا متمسكين بالإسلام ديناً لهم.

وكما سبق ذكره، فاللغة ليست فقط وسيلة تعبير، ولكنها في الأصل آلية تفكير يتميز بها الإنسان العاقل لتقل ما يدور في عقل الفرد من أفكار إلى آخر في صورة محسوسة - مسموعة

أو مقروءة. فالاشتراك فى اللغة يعنى سهولة التواصل مع التماثل فى طريقة التفكير، وصياغة النشاط المعرفى للعقل، وهذا بالتأكد يساعد المجتمعات على الإنجاز وتحقيق الهدف.

رابطة الدين

أما عن الدين، فالمصريون القدماء هم من أوائل الشعوب التى اعتقدت فى وجود الروح منفصلاً عن الجسد، واعتقدوا أيضاً فى وجود حياة أخرى بعد الموت، وهذه المعتقدات من أركان الديانات السماوية الثلاث، وتقبلت العقلية المصرية الدين الإسلامى بسهولة كما تقبلت قبله الدين المسيحى والدين اليهودى، فهم أول من نادى بوحدانية الخالق الأعظم، ووجدوا فى الدين الإسلامى وسطية تجمع بين متطلبات الديانتين السابقتين - المادية فى اليهودية والروحانية فى المسيحية - ويعكس خبرتهم السابقة بأن: اعمل لدينك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.

والدين كما سبق ذكره من العناصر الثقافية الفاعلة فى فكر وسلوك البشر ويشكل القيم الأخلاقية فى المجتمع والمرتبطة بالعقيدة كما يحدد السلوك والعادات، والتقاليد المرتبطة بالعادات، والمعاملات، والعلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع.

كما سبق نرى أن المصرى المعاصر كما تحدد هويته القوانين والقواعد الإدارية يجمع كثيراً من السمات البيولوجية للشعوب المحيطة، ومنهم العرب بطبيعة الحال، وثقافياً فهو يشترك مع العرب فى اللغة والدين وكثير من القيم والتقاليد، وإن كانت العروبة رابطة أوسع من المواطنة (مع ضرورة الاحتفاظ بها والإخلاص لها كضرورة أولية)، وتضم مجموعات متشابهة فى بعض إن لم تكن معظم الجوانب وذات إمكانات بشرية ومادية أكثر تنوعاً وثراء، فيكون افتعال التناقض على أسس نفسية سلبية - كالأناية والطمع والرغبة فى السيادة... وغيرها - هو عمل من لا يريدون التقدم والقوة لشعوب منطقتنا من العالم.

نحن والغرب

تقوم الولايات المتحدة الأمريكية، ومنذ منتصف القرن العشرين، ببناء

إمبراطوريتها وإحكام سيطرتها على العالم رغبة في ممارسة قوتها المتراكمة الهائلة ، ونشر ما يسمى بالسلام المسيحي ، وادعاء تنوير الشعوب بالمعارف الحديثة وتحريرها من طغيان «حكامهم المستبدين» عن طريق نشر ما يسمى بالديمقراطية الغربية ، ولهم في سبيل ذلك السيطرة على مصادر الطاقة وتقوية موقفها التنافسي مع قوى أخرى محتملة الظهور ، ولأطول مدة ممكنة ، وقد يتم هذا بدفع خفي من اللوبي اليهودي الذي يريد أن تقوى «إسرائيل» المستعمرة الاستيطانية تمهيداً - فيما أعتقد - لتصفية حسابهم في المستقبل مع الكراهية والتعصب الأوروبي نحو اليهود المقيمين بينهم على مدى قرون من جهة ، ولسيطرة الغرب على منطقة الشرق الأوسط وإعادة تشكيلها على أسس جديدة أساسها ما يسمى اعتدال دولها وتوافق شعوبها مع الرؤية الأمريكية لعالم اليوم من جهة أخرى .

إن هذه الرؤى الأمريكية ، والغربية على العموم ، لها جذور تاريخية وثقافية ونفسية عميقة ، وليست جذوراً علمية مجردة أو عقلانية منطقية خالصة ، فالعلم والعلماء لا يقودون الشعوب ولا يوجهون سياسات الحكومات إلا بقدر محدود ومتفاوت بين الدول .

في بعض الأحيان يكون العلماء خاضعين لميول حكامهم ؛ تلك الميول التي تشكلها عوامل نفسية عميقة . بل إن حكومات الولايات المتحدة لجأت في العقود الأخيرة إلى إنشاء مؤسسات علمية تغدق عليها المال للقيام ببحوث «علمية» موجهة لأهداف مسبقة ، وخاصة في مجالات العلوم السياسية والاقتصادية بغرض تأييد توجهاتها وتبرير سلوكها ، وتعطى الشرعية والمرجعية الأخلاقية لسياساتها في العالم . وبكل أسف هناك من المفكرين من قبل العمل تحت مظلة هذه المؤسسات وبرروا هذا لأنفسهم بأعذار متعددة أمثال «روستو»(*) في الستينيات و«هنتنجتون»(**) في تسعينيات القرن العشرين . وعلى ذلك يتطلب الأمر نظرة بانورامية لما يجري .

(*) أحد الأساتذة الذي عمل مستشاراً للأمن القومي الأمريكي ، وكان كل همه إيجاد أسباب أخرى غير الاستعمار سبباً في تخلف دول العالم الثالث ، وقطع طريق معونتهم من الدول ذات النظام الاشتراكي في ذلك الحين .

(**) أحد الأساتذة الدارسين الذي قدم للمجتمع الأمريكي فكرة تصادم الحضارات ، ووضع الإسلام على رأس أعداء الحضارة الغربية ، وقد قام في بداية حياته العملية بالدعوة إلى العنف والحرب في فيتنام ؛ لأن في ذلك الوسيلة الناجعة في رأيه لوقف المد الاشتراكي في العالم .

تقول الأساطير اليونانية القديمة إنه كان هناك ملك لدويلة صور الفينيقية له ثلاث بنات غير شقيقات؛ إحداهن تدعى «أوروبا» وهى أجملهن، قام إلههم زيوس باختطافها وأنجب منها ذرية عاشت فى المنطقة التى سميت على اسمها «أوروبا» والأختان الأخريان هما «آسيا» التى بقيت فى الشرق و«ليبيا» التى رحلت إلى الجنوب، وكتاهما أنجبتا ذرية عاشت فى المنطقة التى سميت على اسم أمهم «آسيا وليبيا».

ويلاحظ هنا التشابه مع ما أتى فى الكتب المقدسة عن سكان المعمورة فى الزمن القديم، وأنهم ينحدرون من أبناء النبی «نوح» بعد الطوفان العظيم، وهما «يافت» فى الغرب و«سام» فى الشرق، و«حام» فى الجنوب، وأن ذرية يافت ستحكم ديار أبناء سام وحام، ولأحظ أن النسب عند الإغريق كان للأم وعند الشرقيين أصحاب الديانات السماوية كان للأب (انظر الباب الأول).

فى اليونان القديمة حاول فلاسفة الإغريق توصيف سكان مناطق العالم المعمورة.

وينسب إلى أرسطو (الفيلسوف الإغريقى الأشهر) أنه قسم البشر إلى سكان المناطق شرق أثينا وآخرين غربها، وقام بتوصيف الشرقيين بأنهم أقل حركة ونشاطاً، ولكنهم أكثر ذكاءً من الغربيين، وأرجع ذلك إلى اختلاف المناخ (البرد فى الغرب والحر فى الشرق)، وكان أساس التقسيم هو حركة الشمس وموقع أثينا، ولكنه فيما يبدو لم يبرز فروقاً بدنية، وقد يكون ذلك لأن الفرس الشرقيين، أعداء الروم القدامى التقليديين، كانوا يشبهون الروم بدنياً وفيزيقياً، حيث إن أصولهم قبائل أوروبية تحركت شرقاً من المنطقة الواقعة بين نهر الدانوب ومرتفعات أوكرانيا، واستقروا فى منطقة بلاد فارس وشمال غرب الهند منذ مايقرب من خمسة آلاف عام قبل ميلاد السيد المسيح.

أما عبد الرحمن بن خلدون فى كتابه «العبر...» مع نهاية القرن الرابع عشر الميلادى، فقد قام بتقسيم العالم المعمور وسكانه حيثنذ إلى أهل الشمال وأهل الجنوب، وذكر الفروق البدنية بين الصقالبة أهل الشمال، حيث البرد والثلوج، فهم بيض الجلود، ملونو العيون والشعر، وبين أهل الجنوب، حيث الحر، فهم سود الجلود، ومناطق الوسط وهى أعدلهم مناخاً، فسكانها وسط بين السواد والبياض.

كان لآراء أرسطو سلطة معرفية قوية في أوروبا بعد عصر النهضة، تلك الآراء والمعارف التي وصلت لمفكرى أوروبا عن طرق متعددة، وأهمها كتابات القس توماس الأكويني، والذي تعلم على يد ابن رشد الفيلسوف المسلم، والشارح الأعظم لفكر أرسطو (*).

كما انتقلت آراء ابن خلدون لأوروبا، وأُعتبر بواسطة بعضهم هناك بأنه مؤسس لعلم الاجتماع.

وأصبحت العقلية الغربية ترى في الإنسان الشرقي والجنوبي شيئاً واحداً (الآخر اللاغربي)، وألبسته نمطاً خاصاً معيناً من البشر يجمع بين صفات بدنية (عرقية) ووظيفية (نفسية سلوكية) مميزة عن الإنسان الغربي، والذي اعتبروه أيضاً نمطاً خاصاً متميزاً بمواصفات خاصة.

لقد تأثر المفكرون الأوروبيون بتلك الآراء السابقة حتى إن الفيلسوف الفرنسي الشهير «مونتسكيو» أضاف مثل غيره أن أبناء «يافت» الأوروبيين يسعون دائماً للحركة والاجتهاد في العمل ولا يقبلون الطغيان، أما الآخرون في آسيا وإفريقيا فيميلون إلى الاستكانة وقبول العبودية والخنوع لاستبداد حكامهم، وضرب المثل على ذلك بطغيان حكام الإمبراطورية العثمانية ونعتها بكل سلبى وقبيح، وهناك من المفكرين الغربيين من ينتقد هذه الآراء ويقول إن مفكراً في حجم مونتسكيو الذى قدم أحد أعظم الأعمال الفكرية عن القانون والحكم «روح القوانين» لا يمكن أن يغض الطرف عن طغيان أمراء الإقطاع في أوروبا ويركز على عيوب الحكم في الإمبراطورية العثمانية، وأن معظم آرائه عن الاستبداد التركى ما هو إلا إسقاط لآرائه في أمراء الإقطاع الأوروبيين (**).

(*) رأى ابن رشد فى فكر أرسطو غائبة مشابهة لغائبة الأديان السماوية، فكل شىء وكل حركة لغاية وليست مصادفة أو عشوائية.

(**) لم تعرف معظم دول أوروبا الديمقراطية المعاصرة إلا فى القرن العشرين... إسبانيا والبرتغال فى الثلث الأخير منه، وفرنسا والنمسا وألمانيا وإيطاليا بعد الحرب العالمية الثانية، وفى الواقع لم تصبح كل من ألمانيا وإيطاليا دولة إلا فى نهاية القرن التاسع عشر، أما إنجلترا، والتى تزخر كتب التاريخ التقليدية بقدم الديمقراطية فيها، فقد قاست فى القرن التاسع عشر من كافة الأمراض الاجتماعية، وتنضج روايات شارلز ديكنز وغيره بذلك.

وترجع هيمنة غرب أوروبا على العالم - فى جزء كبير - إلى سبقها فى تكنولوجيا السلاح، واستيلائها على مناجم ذهب وفضة أمريكا، مع استباحة الآخر.

إن هناك بين أسلافه من المفكرين الأوروبيين من يمدحون الأتراك العثمانيين ، ويرون فيهم كثيراً من الصفات الإيجابية والمميزات التي تفوقوا بها عن الأوروبيين ، وذلك في أثناء قوة الأتراك وانتصاراتهم واتساع إمبراطوريتهم في أجزاء أوروبا المتاخمة لها وهذا من صفات العقل الأوروبي (الإعجاب بالمتنصر) .

كان التصور البازغ في عقول المفكرين الأوروبيين ابتداءً من القرن الثامن عشر حتى اليوم ، إن الحضارة الأوروبية (الغربية) هي حضارة لها جوهر خاص فريد ومختلف جوهرياً عن الثقافات الأخرى بنيت على استمرار وتماسك عبر القرون ، وقد ولدت في أئنا القديمة وبعثت من جديد مع عصر النهضة (بعد عصور الظلام) منذ القرن السادس عشر ، وأصبحوا يعتقدون الآن بنبل وسمو هذه الحضارة الغربية مقارنة بغيرها من الحضارات .

يلاحظ أن الدارس الغربي الأمريكي للأوضاع الاجتماعية فيما يسمونه الشرق الأوسط ، وطموحات شعوبه وتطلعهم إلى الحرية والمعرفة والتقدم ، يلجأ إلى تصور نمط ثابت غير متغير لسكانه ، نواته الدين الإسلامى ويقوم بتسميته كنوع خاص من البشر (Homo-Islamicus) ، ويبدأ فى وصف سمات هذا النوع وتقييمها منطلقاً من مفهوم أن الإنسان الغربى (والمجتمع الأوروبى الأمريكى) هو النمط المعيارى الذى يقيس عليه التشابه والاختلاف ، فكل تشابه هو علامة تقدم ، وكل اختلاف هو علامة تخلف ، ولا يستطيعون النظر لنوعية الخلاف بأنه قد يكون أنسب وأحسن لهذه المجتمعات بحجة أنها تفتقر لعناصر نفسية واجتماعية ضرورية للتقدم (هكذا!) .

وما دام أن الإنجاز التكنولوجى المعاصر المبني على معارف علمية قد تم بصورة رئيسية فى الغرب خلال القرون الثلاثة الماضية ، فإن وصفهم للآخر يكون من منطلق الشعور العميق بالتفوق والحق فى السيادة والهيمنة (فيما يسمى بالعقلية المركزية الأوروبية) (*) . وظل هذا الفكر مسيطراً على عقلية الكثير من الدارسين من ذوى القامات العالية ، والتأثير المعنوى فى الفكر الغربى عامة ، أمثال كارل ماركس وماكس فيبر وهاميلتون جيب وغيرهم .

(*) وهى تسمية رقيقة لطيفة للأتوية الأوروبية .

أصبح الفكر السائد في الغرب اليوم، بين المفكرين والجماهير على السواء، بأنهم سادة العالم الحديث ثقافياً واقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، وهم القوة القائدة في تاريخ العالم، ونقلوا الهوة العظيمة بينهم وبين أسلافهم في القرون الوسطى (من القرن الثالث إلى القرن الحادى عشر الميلادى) إلى هوة سحيقة بينهم وبين الآخر، وخصوصاً العربى المسلم، والذين قد يعتبرونه بدائياً وأن الطريق الوحيد للتقدم هو تقليد الغرب فى كل أفكاره وسلوكه .

يقولون تبريراً لذلك أن العقلية الغربية لها مميزات تختلف عن العقلية العربية الإسلامية، وعلى سبيل المثال :

الغربى نشط مجتهد يميل إلى الحرية ويدافع عنها بروحه، ويميل إلى العقلانية، بل يؤمن بها وبأن المعرفة العلمية التى يسعى دائماً لها لا يمكن أن تنبع إلا من عقل الإنسان وحده، وعلى ذلك يعطى أهمية خاصة للتطوير التكنولوجى والاقتصادى، ويقولون أيضاً إن عند الغربى ما يكفى من الفضول الفكرى لبحث ويحاول معرفة الطبيعة وقوانينها مما أدى للتفوق العلمى الكاسح للعالم الأوروبى الأمريكى، والذى استعمله بما يمتلكه من روح الاختراع إلى التقدم التكنولوجى الفائق، والتقدير العميق لعنصر الزمن والاهتمام بقياسه وإدخاله فى أعماله وتعاملاته مما دفع التقدم التكنولوجى بشدة إلى الأمام .

ويتعرض بعض الدارسين فى الغرب إلى دراسة العقل العربى الإسلامى وطبيعة عمليات التفكير عنده، فقالوا إن الشرقى عموماً يركن للكسل والتواكل ويميل إلى العبودية، ولا يثور على الاستبداد والفوضى، ويميل إلى معرفة مجمل الأحداث والأشياء ومعرفة الصور الكلية والاتجاه العام، ولا يميل إلى دراسة التفاصيل والدقة فى رصدها وترتيب معارفه، وعلى ذلك لا يقدر على ربط الأحداث، ويفتقر إلى الشعور بالقانون والنظام ويكره التفكير العقلانى، وأخلاق المنفعة المرتبطين ببعضهما ارتباطاً لا ينفصل، ويقولون عندما حاول واجتهد بعض المفكرين المسلمين منذ ما يقرب من ألف عام - المعتزلة وإخوان الصفا - اللجوء إلى العقلانية المنطقية تحت تأثير الفكر الإغريقى، رفض «اللاهوتيون» المسلمون هذه الاجتهادات التى انزوت فى ركن تاريخ تلك الحضارة . . . وقالوا إن العقل الشرقى شغل نفسه بعظائم الأمور؛ أصل الإنسان ومصيره - من أين أتى وما مقره بعد الوفاة، وهى مسائل معقدة تفوق قدرة

العقل الإنساني على حلها، ولذلك انجذب العقل الشرقي عموماً نحو «العالم غير المرئي».

هذا ويضيفون بأن تمتع الأوروبي بروح المغامرة دفعه إلى أن جاب البحار والمحيطات مع بداية القرن السادس عشر، واكتشف العالم الجديد؛ « ثلاث قارات كباراً والعديد من الجزر» - وتعرف على طبيعتها وثرواتها وسكانها، وقام بجعلها عماراً (الاستعمار) بعد أن كانت خراباً. هذا باختصار هو الإطار الفكري لادعاء التفوق الغربي والتقدم على سائر الشعوب، والذي تم تأسيسه على الآتي:

١ - اختلاف الصفات البيولوجية وإضفاء الشرعية على استعباد الآخرين من الأفارقة والهنود الحمر والأسويين؛ لأنهم أدنى درجة أو درجات في الإنسانية. وقد ثبت علمياً خطأ هذا التوجه، وأن الفروق البيولوجية تساعد على معرفة خصائص الشعوب وتصنيفها، ولكن ليس لها أي مردود ثقافي أو فكري، واستخدامها للتمييز بين الناس تجاوز وتغصب فاضح للذات «انظر الباب الثالث»، وأن العنف والقسوة والحيلة كانت وسائلهم في استغلال الآخر واستعباده، وإذا لزم استتصاليه كما حدث في أمريكا وإفريقيا وأستراليا لتجميع الثروة لهم.

٢ - كثيراً ما أثار المستشرقون الغربيون حال المرأة الشرقية، ورأوها عبدة لأطماع الرجل وشهواته، ذلك المستبد الطاغية في بيته مفرط الشبق، ويستخدم المرأة لإشباع هذا الشبق فقط، ولا يعتبرها إنساناً مساوياً له في الحرية والسيادة، وذلك كتعويض مما يذوقونه هم من حكامهم من استبداد وشراسة... إن ضرورة نشر العدالة تدفعهم إلى استعمار تلك الشعوب وتدريبها على المساواة بين الجنسين، وفي ذلك تأكيد لتفوقهم الأخلاقي!

٣- ورد في التوراة تمييز أبناء يافث ورضا الله عنهم، فهم الأحق بحكم العالم وتناسوا أن كل شعب يفخر بنفسه، وتراثه وعقائده بل إن القرآن يقول للمسلمين ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وتلك الآراء فيها الفهم كما فيها سوء الفهم، فيها التشويه وفيها الحياد، فيها إظهار بعض العيوب وتركيز الضوء عليها وتضخيمها، وفيها أيضاً الإخفاء والتعتيم على كثير

من المميزات والإضافات المعنوية للإنسانية، فيها الإسقاط الشخصى وفيها الموضوعية، فيها النقل المحايد، كما فيها من الإثارة والغريب الشاذ من وضع خيالهم وسلبيات خلقهم.

وما كانت هذه النظرة لتقوم لولا وضعهم غطاءً كثيفاً من الأنانية والتعصب وحب الهيمنة على الآخر. وضع هذا الغطاء على أبصارهم وبصيرتهم، فلا يرون ولا يتذكرون كيف تشكلت الثقافة اليونانية القديمة وأثر الحضارة المصرية الفرعونية فيها، وكيف تعلم معظم فلاسفة الإغريق القدماء على أيدي المصريين فى معابدهم لسنوات طوال، وما تأثير ثقافة الفرس والشرق عموماً فى إمداد الإغريق بالمعارف والخبرات، نعم لقد استوعب مفكرو الإغريق القدماء تلك المعارف العملية من مصر والشرق عموماً، وقاموا بإعمال العقل فيها وتنظيرها، لكن هذا لا يدعو إلى تجاهل الأصول وحقائق التاريخ الإنسانى.

أيضاً تم التعقيم التدريجى على دور الثقافة العربية الإسلامية كدافع ومحرك لعصر النهضة الأوروبية، وإن كان مفكرو القرن الثالث عشر - السادس عشر قد ذكروا مصادر معارفهم عن علماء العرب المسلمين، ولكن بدون فهم صحيح أو عميق لمحتوى هذه المعارف، وعندما استوعبوا محتواها الفكرى والإضافة إليه بدءوا فى عدم ذكر المصادر (هذه صفة أخرى من صفات العقل الغربى: تجاهل فضل الآخر إن أمكن).

من العناصر المميزة للسمو الإنسانى هو الضمير؛ ذلك الرقيب الداخلى القابع فى أعماق العقل، يدفع الإنسان إلى عمل الخير ومنعه من عمل الشر، هذا الرقيب غير المرئى مرتبط بالجانب الروحانى من إنسانية الإنسان التى يؤمن بها المسلم، وفى ذلك يختلف عن فكر الفلاسفة الغربيين المعاصرين الذين يصدقون الرقيب المرئى من الخارج؛ أى القانون الوضعى، والذى يحدد لهم ما الشر وما الخير، وإذا اختفى هذا الرقيب الخارجى يكون كل شىء مباحاً؛ ولذلك تركز إدارة تلك المجتمعات الغربية على القانون، وتجعل احترامه وسيادته على الجميع هو العمود الفقرى الذى بُنيت عليه حضارتها الحديثة. وأعتقد اعتقاداً كاملاً أن ذلك أساسى ومطلوب فى كل المجتمعات؛ شرقية وغربية، إسلامية وغير إسلامية لضبط حركة المجتمعات والترتيب

لتحسين حال معيشتهم، ولكن أعتقد أيضاً أنه إذا أضيف الضمير، ذلك الرقيب الداخلى، وكان فاعلاً فى النفس الإنسانية، فتكون قوة التنظيم مضاعفة وصفاء النفس سائدة، ولا يصح أن تكون تربية الضمير بديلاً عن احترام القانون، أو دليلاً على الانجذاب نحو غير المرئى ومدخلاً للتخلف الإنسانى كما يدعى بعض مفكرى الغرب.

إن هناك مرحلة من النضج تصل إليها بعض المجتمعات الإنسانية تستطيع عندها أن تحدد مصالحها واحتياجاتها، ثم تخطط وتعمل على تحقيق هذه الاحتياجات على أحسن ما يكون بأقل جهد وطاقة مبذولة وفى أقل وقت ممكن. ونظرة إلى تاريخ الإنسان تجعلنا نرى أن هذه المرحلة من النضج نسبية حسب ظروف العالم فى وقتها فكانت بعض الشعوب إمبراطوريات مسيطرة كالفرس، والروم قديماً، والعرب والمغول فى العصور الوسيطة والأوروبيين حديثاً.

يرى المفكر والفيلسوف الألمانى هيجل أن التاريخ الإنسانى ما هو إلا تتابع للحضارات، فتولد حضارة وتنمو حتى النضوج وتسلم الراية لحضارة أخرى، وتبدأ هى فى الانزواء والهرم، لتبدأ الحضارة الجديدة نفس المشوار، وقد ظهرت حضارات فى الشرق فى مصر وآسيا، وقدمت للإنسانية فكرة التوحيد (ولم يذكر طرق الزراعة والنحت والبناء وحروف الهجاء والرياضيات ... وغيرها) كما قامت الحضارة العربية الإسلامية بحفظ التراث اليونانى والرومانى (حسب رأيه)، وقدموه لأوروبا لتبنى الحضارة الحديثة مستفيدة من كل التجارب الإنسانية السابقة.

يعتقد المؤرخ الإنجليزى الشهير توينبى، والذى تتبع إحدى وعشرين حضارة على مدى التاريخ الإنسانى المعروف، أن انهيار حضارة ما واضمحلالها النهائى يكون بسبب عدم استجابتها للتحديات الأخلاقية التى تجابهها! (هل يمكن اعتبار ذلك دليلاً على قرب انهيار الحضارة الأمريكية المعاصرة؟! فالحروب الأمريكية المباشرة وغير المباشرة، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، كلها مبنية على أكاذيب الرسميين وقيام إدارة الدولة بتخويف وإرهاب الشعب الأمريكى بقسوة مما سيلقاه على أيدى الآخرين الحاقدين، وإذا لم يقوموا بتلك الحروب، فهى فى النهاية دفاع عن ممتلكاتهم ودمائهم -

ولكن الشعب الأمريكي يكتشف سريعاً التلفيق والتضليل في تلك الادعاءات من حكاهم كما حدث في فيتنام والعراق(*) . . . وغيره .

بدأت الحضارة الإسلامية في الصعود بدءاً من القرن الثامن الميلادي، واستمرت في الصعود والازدهار حتى القرن الحادي عشر، ثم توقف الصعود وأخذت القابلية للإبداع واستيعاب الجديد الإبداعي الإيجابي تقل تدريجياً (حتى لو ظهر في بيئات أخرى وبين شعوب أخرى)، وشكل العثمانيون مع بداية القرن الخامس عشر حركة انتعاش للحضارة الإسلامية، ولكن بمفهوم تركي وتوجهوا للقوة العسكرية والتوسع الإقليمي، وأغفلوا أو لم يوفقوا في مجارة الفكر الأوروبي الناهض، وعجزوا عن الاستفادة بالإنجازات الفكرية والعلمية والصناعية في أوروبا خلال عصور التنوير والعقل (من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين) وانزلق المجتمع الإسلامي على العموم إلى الركود الثقافي وسوء الإدارة .

ولكني أعتقد أن الحضارة الإسلامية لم تصل إلى قمتها بعد؛ لأن جوهرها الحقيقي لا يظهر ويفيض لخير الإنسانية إلا إذا كفلت الاحتياجات المادية لأفرادها، عن طريق المعارف والعلوم الحديثة وتطبيقاتها التكنولوجية المتطورة .

وأعتقد أن الجوهر الفريد والروح الخاصة بالعقيدة الإسلامية تتركز في قيم العدل والإحسان والتراحم . العدل الحق لا يتحقق إلا بحرية الفرد، وانطلاق فكره، وعواطفه بشرط ألا يجور على فكر وعواطف الآخرين، والمساواة بين الأفراد في كل الحقوق والواجبات، وتكافؤ الفرص في العمل، فيقوم كل فرد في أداء ما يجب وما يتناسب مع مواهبه، وإمكاناته مع عدالة في توزيع نتاج العمل بين المواطنين فيكون لكل فرد نصيب عادل من ثروة بلده طبقاً لجهده وإمكاناته بلا ظلم .

(*) زعم الرئيس الأمريكي بوش وإدارته امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل، فقام بغزوه مع الدول الحليفة والتابعة والطامعة، ثم تبين كذب الرئيس، فتغير سبب الغزو إلى علاقة العراق بهجمات 9/11، وتبين زيف الزعم الثاني، فتغير إلى علاقة صدام بالقاعدة، ثم تبين لثالث مرة زيف الزعم الثالث، وكل ذلك على مسمع ومرأى العالم كله . . . فإذا بالرئيس الأمريكي يحول السبب إلى أن الغزو لنشر الديمقراطية في العراق والشرق الأوسط . . . وبالطبع لا يصدق أحد ذلك . . . فلم يخجل الرئيس أن يحول مهمة الغزو إلى حماية حلفائه في الشرق الأوسط من الخطر الإيراني، وبمثل هذه الأكاذيب، واستباحة الآخر، هيمن الغرب، بعد سبقه في تكنولوجيا السلاح، واستيلائه على فضة وذهب أمريكا .

أما الإحسان فهو الإخلاص فى العمل وتجويده وأن يعطى الإنسان كل ما يستطيع من جهد؛ لأن الخالق يراه فيتقن هذا العمل ويحبه الخالق، كما أن الإحسان هو عطاء مباشر من الجهد والمال لمن يحتاج ويستحق .

التراحم ونشر المودة بين الناس، والأقربون أولى بالمعروف، والتفضيل هنا للترتيب وليس للتخصيص، أى أن التراحم وإيتاء ذوى القربى ليس فى الأسرة البيولوجية فقط ولكن بين البشر أجمعين، فإن لم تكن أخوة بالمورثات فنحن أخوة فى الدين وفى الإنسانية، بل من المحمود أن تكون المودة مع جميع المخلوقات التى تشارك الإنسان الحياة من حيوان ونبات .

يهمنا فى العالم المعاصر أن نلقى نظرة فاحصة على ما يجرى، ووضعنا فيه كمصريين وعرب، وتقييم درجة تقدمنا وتخلفنا بمقاييسه كخطوة أولى .

لقد وجد الأوروبيون أهدافهم ومصالحهم بعد عصر النهضة فى التحرر من سيطرة كهنوت الكنيسة المسيحية، ثم فى الاكتشافات الجغرافية ومسح الكرة الأرضية، ثم فى دراسة الطبيعة ومعرفة قوانينها، ثم فى دراسة البشر المشاركين لهم الكرة الأرضية ومعرفة مواصفاتهم الجسدية وثقافتهم، وقيمهم وعاداتهم؛ كل ذلك لتحقيق هدفين: الأول هو الاكتفاء الغذائى والاقتصادى، والثانى هو حماية ما يحصلون عليه من ثروة عن طريق تنظيم وتطوير وسائل القوة، وفى ذلك تحقيق لاحتياجاتهم النفسية من سيادة وهيمنة على الآخرين، بل إن دراساتهم للثقافة العربية الإسلامية، التى تم بناؤها على دين جديد، وفكر جديد مع معارف السابقين فى الشرق والغرب، أنتجت من المعارف والعلوم ما كان هو الهيكل الصلب الذى ارتكزت عليه وأتاحت لهم تكملة البناء بوسائل جديدة كما سبق تفصيله .

لقد هاجر كثير من الأوروبيين إلى العالم الجديد - أمريكا الشمالية والجنوبية وأستراليا - يجذبهم حلم الثراء وجمع الذهب والفضة، ويدفعهم التمرد على القديم وقيوده على أمل الحرية والانطلاق ويحملون معهم تراث الإنسانية من معارف وعلوم وفنون، وإكسبير التقدم المبنى على معرفة الطبيعة وقوانينها، والعمل على استغلال هذه المعارف فى صناعة وزراعة وبناء، وساعدتهم دولهم فى أول الأمر، بل أرسلت

جيوشها من إنجلترا، وفرنسا، وهولندا، وإسبانيا، والبرتغال لاحتلال تلك الأرض وإخضاع ساكنيها، وإن لم يقبلوا مشاركة وسيادة الوافد الجديد، أجبروهم على هذه المشاركة بالقوة والقهر، والإبادة أحياناً.

واستطاع السكان الجدد للعالم الجديد تكوين مجتمعات مترابطة استطاعت فى نهاية المطاف التمرد على دولها الأصلية، وتكوين دول جديدة «مستقلة»، استطاعت إحدى هذه الدول أن تبنى إمبراطوريتها، وتتحكم فى العالم مع بداية القرن الواحد والعشرين الحالى، وهى الولايات المتحدة الأمريكية.

ولنضرب مثلاً واضحاً لوسائل التضليل التى تستخدمها الإدارات الأمريكية لإعاقة التقدم فى منطقتنا العربية.

يدعى الفكر الأمريكى فى كتاباته الجارية «أن النظم القومية فى مصر وسوريا فى النصف الثانى من القرن العشرين انتهجت سياسة عقيمة، بدلاً من أن تقوم ببناء عالم عربى متحد وتدفعه نحو الاستقلالية الاقتصادية وتنميته ودفعه نحو التصنيع الحديث، دخلت فى مواجهات طائشة مع الغرب وإسرائيل نتج عنها هزيمة مهينة لجيوشها ونزعت المصادقية عن ناصر ونظامه الذى مات فجأة».

أما الحقائق الموثقة فهى :

١ - حاربت الولايات المتحدة والغرب الوحدة العربية - بالسياسة المعروفة : فرق تسد - بوضع الأسافين بين الحكام العرب، وخصوصاً بين مصر والسعودية .

٢ - إعاقة النمو الصناعى والاقتصادى فى مصر بالحصار، وترهيب الخبراء الأجانب وسحب تمويل السد العالى، وزرع بذور الشك فى قدرة المصريين على عمل شىء مفيد (زادت هذه النبوة أخيراً بالتركيز على الآثار الجانبية للمشروع، وخاصة بين الشباب، رغم أنه أنقذ مصر من الفيضانات وفترات الجفاف).

٣ - التخطيط الحثيث لكشف الأخطاء، وعدم مهنية العسكريين المصريين فى تلك الفترة وجرهم إلى مواجهة لا يريدونها مع الجيش الإسرائيلى المدعم معلوماً، وخططياً، وتسليحاً من الغرب مما أدى لهزيمة ١٩٦٧ .

٤ - لم يمت ناصر فجأة ولكن بعد هذه الهزيمة وتداعياتها من خلافات بين العرب .

لقد كان حكام الغرب فى أوائل القرن العشرين يعتقدون أن سيظرتهم على شعوب الشرق الأوسط وشمال إفريقيا والهند وغيرها سيطرة أبدية، وأن استعمارهم لتلك الأجزاء استعمار خالد، مثله مثل استعمار إخوانهم للعالم الجديد فى الأمريكتين وأستراليا، ونظراً لغرور القوة لم يفظنوا للفروق الجوهرية بين سكان المنطقتين من العالم (منطقة العالم الجديد ومنطقة الشرق الأوسط) تاريخياً وحضارياً، فما كادت منطقة الشرق الأوسط تتحرك مع منتصف القرن العشرين حتى تحركت باقى الأجزاء فى إفريقيا، وآسيا، وأمريكا اللاتينية، بل زادت حركات المطالبة بالحقوق المدنية للأفارقة الأمريكيين فى الولايات المتحدة ذاتها، وكل ذلك شكل عقبات حقيقية أمام طموحات الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية فى السيطرة على العالم وإحلال إمبراطوريتها محل إمبراطوريات «أوروبا القديمة» .

بل إنى أعتقد أن بناء الإمبراطورية الأمريكية الحديثة صار سهلاً بعد موت عبد الناصر فى عام ١٩٧٠ م وهناك العديد من الدلائل على ذلك!

لقد شهدت نهاية القرن العشرين انتكاسة قاسية للقيم الإنسانية التى تعارف عليها البشر قبل هذا التاريخ، حين كان الهدف لحياة الإنسان هو تنميتها وتطوير المجتمعات الإنسانية بمحاربة الأعداء الثلاثة - الفقر، والجهل، والمرض - ولكن فجأة انكشف الغطاء عن التقدم الأوروبي الأمريكى بصورة لم يسبق لها مثيل، وأصبح واضحاً للجميع أن هذا التقدم ما كان يمكن أن يتم دون استعباد الآخرين واستغلال طاقاتهم واستنزاف ثرواتهم، وأن ذلك السلوك كان عنصراً رئيسياً فى بناء وقوة العالم الغربى المسيطر، وبدلاً من أن يساعدوا الفقراء حتى يتغلبوا على الإملاق، زادوهم فقراً (إن لم يكن مطلقاً فنسبياً، حيث زادت الفروق بين الأغنياء والفقراء على مستوى الطبقات داخل الدول وعلى مستوى العالم أيضاً)، وبدلاً من تعليم «الجهلاء» والمساعدة على تحسين وضعهم المعرفى، يمنعونهم من العمل لزيادة معارفهم (انظر ماذا يفعلون مع إيران) بحجة أن هؤلاء «الجهلاء» سيسبئون استخدام العلم والتكنولوجيا إذا تملكوها، وذلك ليس فى صالح المجتمع الدولى والإنسانية! (لأنهم هم المجتمع الدولى وليس غيرهم، والطبيعة البشرية فى رأيهم ترتكز على الأنانية

والمنافسة بعكس عقيدتنا أن الإنسانية تعاون وإيثار). بل أصبحوا يستخدمون المرض كأحد وسائل الحرب والقتال، ويتم استزراع الميكروبات الفتاكة في المعامل والمختبرات وإعدادها «ليوم المعركة».

لقد دفعت التطورات السياسية، والاقتصادية في العقود الأخيرة إلى فتح الباب واسعاً أمام الدراسات الأكاديمية المستفيضة في الغرب عن الاستعمار وفلسفته، وأثاره على الشعوب المستعمرة والمستعمرة، ودوره في بناء العالم بالصورة التي نراها مع بداية القرن الحادى والعشرين.

أما نحن فما وضعنا الحالى؟

يمكن للقارئ أن يحكم على وضعنا الحالى بالنظر إلى عناصر التقييم ومقاييس التقدم كل على حدة (انظر الباب الرابع)، فعليه أن ينظر إلى الإنسان المصرى، والعربى كفرد، وحالته الصحية بدنياً، ونفسياً. كما يجب النظر إليه كوحدة اجتماعية، وتقييم المجتمعات العربية من الناحية الصحية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية من لغة ومدى تمسكنا بلغتنا وسيلة تفكيرنا، ومدى تطويرها وتميئتها، ومدى فهمنا لروح ديننا الحنيف، وتطبيقنا لتعاليمه الجوهرية وقيمه الأخلاقية بعقول مفتوحة لاحتياجات التغيرات الاجتماعية والاقتصادية على مستوى العالم بدون خوف أو تردد، فديننا متين، وأيضاً النظر فى الأوضاع العلمية والتكنولوجية، وقياسها بمعايير السابقين لنا فى هذا المضمار من الأوروبيين، ولكن ليس بشروطهم وتطبيقاتهم لتلك المعارف.

أمل أن يكون هذا الكتاب وما قدمه من معارف وتحليلات مفيداً للقارئ العربى ودافعاً للمزيد من القراءة، والتعلم لمعرفة ما يجرى فى أوطاننا، وفى العالم من حولنا وإدراك مكاننا فيه على الوجه الصحيح.

* * *

المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية

- * أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٨٤٠ - ٩٢٢ م): جامع البيان في تأويل القرآن - الطبعة الثانية - مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - ١٩٥٤ م.
- * أبو الحسن علي بن سهل بن ربن الطبري (٧٨٠ م): فردوس الحكمة - مطبعة أقتاب - برلين - ألمانيا - ١٩٢٨ م
- * أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٦ م): القانون في الطب - ثلاثة أجزاء - مطبعة بولاق - القاهرة - ١٨٧٧ م
- * أبو القاسم جابر الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (١٠٧٤ - ١١٤٣ م): الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - ١٩٦٦ م.
- * أندريه إيمار وجانين أبوايه. Avaya - : تاريخ الحضارات العام - فريدم - داغر وفؤاد ج. أبو ريحان (ترجمة) - المجلد الأول - منشورات عويدات - بيروت. (١٩٦٤)
- * أندريه كريسون : ديكارت - تيسير شيخ الأرض (ترجمة)، دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت - ١٩٥٦ م.
- * أنيس منصور : الخالدون مائة وأعظمهم محمد ﷺ - الطبعة السابعة - الزهراء للإعلام العربي ١٩٩٨ م.
- * برويز أمير علي بهائي بيود : الإسلام والعلم. الأصولية الدينية ومعركة العقلانية - محمود الخيال (ترجمة) - المشروع القومي للترجمة - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - ٢٠٠٥ م.
- * بهاء طاهر : أبناء رفاة - الثقافة والحرية - كتاب الهلال - دار الهلال - القاهرة ١٩٩٣ م.
- * توماس كون : بنية الثورات العلمية - شوقي جلال - ترجمة - سلسلة عالم المعرفة رقم ١٦٨ - الكويت - ١٩٢٢ م.
- * ثروت عكاشة : مذكراتي في السياسة والثقافة - مكتبة مدبولي - القاهرة ١٩٨٨ م
- * جان ماري بليت (بالفرنسية) : «عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة» - السيد محمد عثمان (ترجمة) : سلسلة عالم المعرفة رقم ١٨٩ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت - سبتمبر ١٩٨٤ .

- * **جراهام إى فوللر** : جمع أيان أو . ليسر - الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة - شوقى جلال - مركز الأهرام للترجمة - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٧٧ م .
- * **جلال أمين** : خرافة التقدم والتأخر - دار الشروق - القاهرة - ٢٠٠٥ م .
- * **چنيفر آكرمان** : همس من الماضى - تاريخ طبيعى لعلم الوراثة - أحمد مستجير (ترجمة) - المشروع القومى للترجمة - العدد ٤١١ - المجلس الأعلى للثقافة - الطبعة الأولى ٢٠٠٢ م .
- * **چورج سارتون** : تاريخ العلم [إبراهيم بيومى مذكور، محمد كامل حسين، قسطنطين رزىق، محمد مصطفى زياد - إشراف على الترجمة] - دار المعارف - القاهرة ج ١ ط ٤ (١٩٧٩م) - ج ٢ ط ٣ (١٩٧٨م) - ج ٣ (١٩٧٨م) .
- * **الحافظ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير القرشى (١٣٠٠ - ١٣٧٢ م)** : تفسير ابن كثير - مطبعة المنار - القاهرة - ١٩٢٨ م .
- * **حسن حامد عطية** : خلق الإنسان بين العلم و القرآن - مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله - تونس - ١٩٨٧ م
- * **دماسيو، دماسيو** : الدماغ واللغة - مجلة العلوم (الكويت) المجلد ١٠ العدد ٥ - ١٩٩٤ م .
- * **رجاء النقاش** : عباقرة ومجاهدون - مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٩٠ م .
- * **ريتشارد نيكسون** : نصر بلا حرب - الطبعة الرابعة : مركز الأهرام للترجمة والنشر - ١٩٩٦ م .
- * **زكارى لوكمان** : تاريخ الاستشراق وسياساته - الصراع على تفسير الشرق الأوسط . شريف يونس (ترجمة) - دار الشروق - القاهرة الطبعة الأولى - ٢٠٠٧ م .
- * **زكى نجيب محمود** : عربى بين ثقافتين - دار الشروق - القاهرة - ١٩٩٠ م
- _____ : أفكار ومواقف : الطبعة الأولى - دار الشروق - بيروت والقاهرة ١٩٨٣ م .
- _____ : هذا العصر وثقافته - الطبعة الثانية - دار الشروق - بيروت والقاهرة ١٩٨٢ م .
- * **سليمان حزين** : حضارة مصر - أرض الكنانة - دار الشروق - القاهرة - ١٩٩١ م .
- * **عباس محمود العقاد** : عبقرية عمر - نهضة مصر للطباعة والنشر - الطبعة العاشرة سنة ٢٠٠٦ .
- _____ : الإنسان فى القرآن - مطبعة نهضة مصر - القاهرة - ٢٠٠٣ م .
- _____ : الفلسفة القرآنية - كتاب الهلال - دار الهلال - القاهرة - ١٩٧٠ م .
- * **عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى** : (١٣٣٠ - ١٤٠٦ م) - العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر - دار الكتاب اللبنانى - بيروت ١٩٨١ م .
- * **عبد الوهاب المسيرى** : دراسات معرفية فى الحداثة الغربية - مكتبة الشروق الدولية - القاهرة - ٢٠٠٦ م .

- * **على بن العباس المجوسى**: (٩٤٩ - ٩٨١ م) - كامل الصناعة (الملكى) - جزءان - مطبعة بولاق - القاهرة - ١٨٧٧ م.
- * **على عبد العزيز النفيلى**: مدخل إلى الأنثروبولوجيا البيولوجية - المركز العربى للوثائق والمطبوعات الصحية - أكمل - الكويت - الطبعة الأولى - ١٩٩٧ م.
- * _____: دراسة عن نمو الأطفال فى التراث العلمى للحضارة الإسلامية طبع ونشر - أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا - القاهرة - ٢٠٠٥ م.
- * **على على حبيش**: استيعاب التكنولوجيا وتحديات العصر - أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا - مطابع روز اليوسف الجديدة - القاهرة - ١٩٩٢ م
- * **علاء الدين أبو الحسن على بن حازم القرشى المشهور بابن النفيس**: (١٢١٠ - ١٢٨٨ م) - الموجز فى القانون - مخطوط رقم D578 قسم الوثائق والمخطوطات - الخزانة العامة بمدينة الرباط - المغرب .
- * **فرانسيس فوكوياما**: نهاية التاريخ والرجل الأخير End of History and The last man - حسين أحمد أمين: (ترجمة) - مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة ١٩٩٣ م .
- * **فؤاد زكريا**: التفكير العلمى - الطبعة الثالثة - سلسلة كتب عالم المعرفة - الكويت - ١٩٨٨ م .
- * **محمد أحمد الغمراوى**: الإسلام فى عصر العلم - إعداد: أحمد عبد السلام الكردانى - أربعة كتب فى مجلد واحد - دار الإنسان (للتأليف والترجمة والنشر) - القاهرة . (١٩٧٣).
- * **محمد أركون**: الفكر العربى - عادل العوا (ترجمة) - الطبعة الثالثة - دار منشورات عويدات - بيروت - باريس ١٩٨٥ م
- * **محمد عابد الجابرى**: الأبيستمولوجيا والأيدلوجيا واستقلال التاريخ من ملفات الذاكرة - الكتاب التاسع عشر - الدار البيضاء - ٢٠٠٣ م
- * _____: مدخل إلى فلسفة العلوم - الجزء الأول: تطور الفكر الرياضى والعقلانية المعاصرة - الجزء الثانى: المنهاج التجريبى وتطور الفكر العلمى - دار النشر المغربية: الدار البيضاء - المغرب ١٩٧٦ م .
- * **محمد الجوادى**: أدباء التنوير والتاريخ الإسلامى - دار الشروق - القاهرة - ١٩٩٦ م
- * **محمد طنطاوى**: فلسفة الجمال الداخلى (بين الدين والأدب) - المركز المصرى العربى - القاهرة - ١٩٩٢ م .
- * **محمد فوزى جاب الله**: التطور وأصل الإنسان من منظور إسلامى - المطبعة العالمية - ش ضريح سعد - القاهرة - ١٩٩٢ م .
- * **محمد كامل حسين**: وحدة المعرفة - الطبعة الثانية - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة . (١٩٧٤).
- * **محمود إسماعيل**: فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية - مكتبة مدبولى - القاهرة - ٢٠٠٥ م .

- * **مصطفى عوض**: الانتخاب الطبيعي - رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - ١٩٨٠ م.
- * **موريس بوكاي**: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم - ترجمة من الفرنسية - دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٩ م.
- * **ول يورانت**: قصة الحضارة (الشرق الأقصى - الصين) - محمد بدران (ترجمة) - الجزء الرابع - (لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة) - ١٩٥٧ .
- _____ : قصة الحضارة (الحضارة الرومانية) - محمد بدران (ترجمة -) - الجزء الثالث من المجلد الثالث - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٥ م
- _____ : قصة الحضارة (حياة اليونان) - محمد بدران (ترجمة) - الجزء الثاني من المجلد الثاني - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٣ م .
- _____ : قصة الحضارة (الهند وجيرانها) - زكى نجيب محمود (ترجمة): الجزء الثالث من المجلد الأول - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٧ م .



ثانياً: المراجع الأجنبية

- Aguirre E

Facts, Dates and theory on the origin of modern humans.
Journal Human Ecology , vol.4:3-36,1994.

- Ashley Montague, MF.

An Introduction to Physical Anthropology .
Charles C. Thomas , Springfield, ILLINOIS, 1945.

- Beals, R.L, and Hajjer, H

An Introduction to Anthropology
Second Ed ,MacMillan Co, New york, 1964

- Cavalli- sforza, L.L and Bodmer, W.E.

The genetics of human populations
Freeman publ. Co, San Francisco , 1971.

- Charles Darwin

The origin of Species.
6 th ed. The ed. With Introduction by Sir Gavin de Beer
The World's Classics, oxford, 1956.

- Chomsky, N.**
 Knowledge of language : its nature, origin and use.
 Greenwood press, 1986.
- Chomsky, N.**
 Language and mind.
 Cambridge Univ. Press, 1972
- Coon, C.s, Garn, S.M., Birdsell, J.B.**
 Races ,A study of the proplems of race formation .
 Charles C. Thomas, Springfield, Illinois, 1955.
- Downs, J.F, Bleibtrau, H.F.**
 Human Variations- An Introduction to Physical Anthropology.
 Benziger Bruce and Glencoe, Inc., Toronto, Canada, 1972.
- Hoijer, H**
 The nature of language .
 In: Exploring the ways of mankind .Goldschmidt, W.(ed) Holt ,
 Rinehart and Watson Inc .N.Y.1977.
- Hubbard, J.**
 The biological basis of mental Activity .
 Addison Wesley publ., Massachussets, California, London, Amsterdam,
 Ontario, Sydney, 1984.
- Hewes, G.**
 Primate Communication and the gestural origin of Language .
 Current Anthropology, 14:24, 1973.
- Kohen, D.E.**
 DNA evolution data and its relevance to mammalian Phylogeny. In:
 Molecular Anthropology ,Goodman ,M.and Tashiany, R.(eds.)
 Plenum Press, New york.1976.
- Lasker, G.W.**
 The evolution of man.
 Wayne State University Press, Michigan, 1965
- Le Vien ,R.A.**
 Culture, Behavior and personality.
 Second Edition, Aldine Publishing company, New York 1982.
- Nestruch, M.**
 The origin of man
 Progress Publishers, Moscow ,1967.

- Smith,F.H and Spencer,F .(eds.)**
The origin of modern Humans.
Alan R,Liss Public, New York, 1984.
- Sims,A. and Hume,W.**
Lecture notes on behavioral sciences .
Blackwell Scientific Public, oxford, London.1984.
- Stern,C.**
Principles of human genetics.
W.H. Freeman and Co,San Francisco ,1973.
- The Encyclopedia Americana.**
Int.edt., Vol. 9,27, Grolier Inc., Connecticut,
U.S.A. 1983.
- Tobias, P.V.(ed.)**
Hominid Evolution:Past, Present and future.
Alan R. Liss Public, New York, 1985 .
- Torsten Malmberg**
Human Territoriality
Mouten Publ . The Hague. Paris,new York,1980.
- Trinkaus, E.(ed.)**
The emergence of modern humans.
Cambridge University Press, Cambridge, 1989.
- Vital Statistics of the united States**
National Centre for Health Statistics
Hyattsville, Maryland, 1984
- Whorf, B.H.**
Language, thought and reality.
In exploring ways of mankind. Goldschmidt, W (ed.) Holt, Rinehart and
Winston, Inc.N.Y.1971.
- Wilson, E.O.**
Sociobiology: The new syntheses.
Harvard University Press, Massachusettes, U.S.A., 1975 .

المؤلف فى سطور

- * دكتور على عبد العزيز النفيلى ، أستاذ الأثروبولوجيا بالمركز القومى للبحوث - جمهورية مصر العربية .
- * أول عربى حصل على درجة دكتور فى العلوم (D.S c) من موسكو - ١٩٦٦م .
- * عضو مؤسس وأمين عام الجمعية المصرية لعلوم الأثروبولوجيا البيولوجية .
- * عضو منتخب لمجلس إدارة الجمعية الأوروبية للأثروبولوجيا .
- * عضو فى العديد من الجمعيات العلمية المحلية والدولية .
- * أسس مدرسة علمية ، وأشرف على ثمان عشرة رسالة دكتوراة ، وسبع وعشرين رسالة ماجستير .
- * له عدة مؤلفات ، وأكثر من مائة بحث منشورة فى الدوريات العلمية المتخصصة ، المحلية والأجنبية .
- * أستاذ زائر ومحاضر فى العديد من الجامعات فى أوروبا وأمريكا واليابان .
- * حائز على جائزتى التفوق والتقدير العلمى من المركز القومى للبحوث .

Contents

Introduction

CHAPTER I : HUMAN DIVERSITY

- 1 - ORIGIN OF MAN
- 2 - ORIGIN OF RACIAL VARIATIONS
- 3 - CLASSIFICATION OF RACES

CHAPTER II : VARIATION OF CULTURES

- 1 - BASES OF CULTURE
- 2 - LANGUAGE AND LIFE
- 3 - ART AND ART WORKS
- 4 - RELIGION
- 5 - SCIENCE AND SCIENTIFIC RESEARCH
- 6 - TECHNOLOGY
- 7 - VALUES,HABITS AND TRADITIONS

CHAPTER III :

IS THERE ANY RACIAL CHARACTERISTIC
OF CULTURE?

CHAPTER IV :

PROGRESS AND ITS ESTIMATION.

CHAPTER V :

EGYPT,ARABS AND PROGRESS

REFERENCES :

ARABIC LITERATURE
FOREIGN LITERATURE

Aly El-Nofely

PROGRESS and REGRESS

between Diversity of Humans and
variation of cultures